رسائل الاستانة

(٥) العناصر العثمانية — اتحادها وانشقاقها

العرب والترك والارمن

ان الاتفاق والاختلاف بين رجال تركيا الفتاة ورجال تركيا العجوز امر جلل يهم العثماني همًّا كبيراً لانهُ يقدم ويؤخر في مصالح الامة والدولة كثيراً . ولكن مهما عظم شأنهُ لم يبلغ في اعتبارنا شأن اتحاد العناصر العثمانية وانشقاقها اذ اتحادها اعم واعظم نفعاً من اتفاق الفتاة والعجوز وانشقاقها اوسع ضرراً واشد تأثيراً في تعطيل مصالح الامة من اختلافهما . وقد كانت مسألة هذه العناصر اعظم باعث لنا على السفر الى الاستانة ودرس المسائل العثمانية فيها . وكانت مسألة العنصر الارمني التي بحثت عن مذابح اذنه تشغل بالنا وتزيد همنا حينئذٍ خوفاً من ان يكون ولاة الامور في تركيا غافلين عنها غير مبالين بما لها من التأثير السيء في العالم المتمدن واشفاقاً من ان يصح فيهم ما كان يقولهُ كثيرون من الاجانب عنهم وهو ان الحكومة الدستورية الحالية ناتجة في تحقيق تلك الحوادث نهج الحكومة الاستبدادية الحميدية يدعوى انها تحقق قولاً وتطمس معالم الحق وتخالف العدل فعلاً . ومما كان يزيد خوفنا وحذرنا من ذلك الاخبار التي كانت الشركات البرقية تطيرها الينا عن افعال ديوان الحرب الذي كان يحقق قبل تعيين سعادة الفريق اسمعيل پاشا فاضل رئيساً لهُ وارسال الفين من افاضل المبعوثان الى اذنه . ولذلك لم نكد نلتقي باسمعيل پاشا فاضل على ظهر الباخرة الرومانية في ازمير كما مرَّ بنا ذكرهُ في مقالة سابقة ونسمع من لسانهِ انهُ مسافر في الغد الى اذنه ليرئس ديوان الحرب فيه حتى كاشفناهُ بخوفنا وحذرنا وقلنا لهُ اننا لا نعلم ان كنتم انتم ولاة الامور منتبهين لما كان للمذابح الاخيرة من التأثير في العالم المتمدن ولما يقال عنا الآن بسببها ولما يخامر فؤاد كل عثماني حر يغار على شرف الدولة ومجدها وحسن سمعتها من الخوف والقلق لئلا تكونوا لاهين عن ذلك بمشاغلكم الاخرى غير مبالين بعواقب ما يسمعهُ امثالنا العثمانيون البعيدون عنكم من الاقوال التي لا تسمعونها والتعبيرات التي لا يبلغكم خبرها

فقال ولكن العالم المتمدن يعلم اننا غير مسألولين عن تلك الحوادث وانها حدثت على غير علمنا ورضانا . قلنا نعم ان العالم المتمدن يعلم ذلك ولا يعدكم مسألولين عن حدوث ما حدث ولكنهُ يعدكم مسألولين عن اظهار الحق واجراء العدل بعد حدوث ما حدث . وكل عثماني

حر يطالبكم بان تفعلوا فعل الحكومات العادلة الدستورية في مثل هذه المهمة وان تزيلوا هذه الوصمة بقوة الحق والعدل عن جبين الدولة . فاعجبه كلامنا هذا وسره ما سمعه عن غيرة العثمانيين على دولتهم الدستورية وحرصهم على حسن سمعتها في كل البلدان المتمدنة

فقال لنا اقوالاً سكّنت قلقنا ولكن فاتنا ان نستأذنه في نشرها برمتها فامسكنا عن نشرها لعلمنا انه ضابط وموظف في حكومة وربما حظر عليه نشر اقواله ولكن لا بأس ان نقول ان خلاصة كلامه كانت ان العالم المتمدن سيعلم عن قريب ان الحكومة الدستورية العثمانية ليست حكومة تطمس الحق وتميت العدل لاغراض دينية او جنسية بل انها تفعل الواجب عليها فتظهر الحق وتجري العدل بلا محاباة ولا مراعاة كاعدل حكومة متمدنة دستورية

فقلنا له انا نطلب منكم نشر كل التقارير الحاوية للتحقيقات والشهادات والاحكام حتى يطلع عليها القاصي والداني . قال ان ذلك كله سيرسل الى مجلس المبعوثان وقد عاد حضرة يوسف بك كمال من المبعوثان من ادنه وكان امس هنا وسافر الى الاستانة وسيعرض تقريره على مجلس المبعوثان

فلما وصلنا الى الاستانة وذهبنا الى مجلس المبعوثان كان اول خطيب رأيناه وقف على المنبر في جلسة ذلك اليوم يوسف بك كمال يخطب طالباً اعانة لمنكوبي تلك الولاية حتى يتداعوا لوازم الزراعة وخطب بعده آخرون فكان حضرته اخطبهم كلهم بلا خلاف . وسألنا سيفي الاستانة عن تأثير مذابح ادنه وعما سيكون من امرها فسمعنا فيها من افواه رجال من جمعية الاتحاد والترقي ورجال من المبعوثان وكلهم من المسلمين اقوالاً توافق ما سمعناه من فم اسمعيل باشا فاضل . وقيل لنا ان جريدة طنين كتبت في هذه الحوادث تطلب اظهار الحق واجراء العدل وانصاف الارمن كتابة لم تفقها مقالات الجرائد الارمنية نفسها . وشعرنا انه وان كان لا يزال في نفوس الارمن ألم وجفاء واستياء لكنهم شعروا بمجاهرة اخوانهم الترك لهم اخيراً وباتوا يرجون بعد تلك المجاهرة ان يتم العدل وينصف المظلوم من الظالم ولذلك وجدنا كثيرين منهم مبالين الى تناسي ما مضى وتسهيل سبيل الاتفاق والاتحاد في المستقبل . ومهما يكن من هذه الآمال والاميال فالذين زاروا الاستانة ايام زيارتنا لها لم يكادوا يشعرون باختلاف او انقسام بين العنصرين التركي والارمني فيها ولا لحظوا ان العثمانيين الذين يهتمون بالمسائل العمومية وامر العناصر يظهرون همهم من جهة العنصرين التركي والارمني او يبدون اقل شيء من القلق الذي يبدونه من جهة العنصرين التركي والروسي

ولكن قال لنا بعض الخبيرين ان الامر ليس كذلك في بلاد الافاضول وان بعض الدوائر

الوطنية والاجنبية التي بينها وبين الاناضول مواصلات ومراسلات غير مطمئنة اطمئنان اهل الاستانة من هذا القبيل

ولما وقفنا على ما وقفنا عليه من جهة العنصر الارمني وسمعنا من يوثق باقوالهم ان الحكومة الدستورية عاقدة النية على ان تظهر للعالم ترفعها عن التعصبات الدينية والتحزبات الجنسية في امر الحوادث الاناضولية جعلنا نبحث عما يهمنا اكثر مما يهمنا سواهُ وهو امر العنصر العربي الذي نُعَدُّ منهُ والذي نودُّ طبعاً ان يكون في مقدمة جميع العناصر (عثمانية كانت او غير عثمانية) رفاهة وسعادة وارتقاء ونجاحاً . ولما كان غرضنا الاول جلاء الحقائق للقراء وجب علينا ان نعترف هنا ان امر هذا العنصر لم تجلِ لنا حقيقتهُ في الاستانة لاننا كنا نشعر كلما ذكرنا امرهُ انهُ لا يسهل علينا معرفة الحقيقة عنهُ لاننا لا نسمع الاقوال الصريحة ولا نطلع على البواطن الجلية . وربما كان هذا الشعور قد تولد فينا من تأثر السليقة مما حولنا بلا دخل لادراكنا في ذلك . وربما كان قد تولد من سبب آخر وهو اختلاف الاقوال التي كنا نسمعها من العرب والترك مع شدة حرصنا على اكتشاف الحقيقة ومحاولتنا عدم الاقتناع بالاقوال التي نسمعها ما لم يقم عليها الشاهد والدليل . والشاهد والدليل لا يتأتيان في كل آن

وسواء كان السبب في شعورنا هذا صواباً او خطاء فهذا ما شعرنا به بيّنَّاهُ بصراحة وحرية ليكون القارئُ على بصيرة . وبعد هذا التبيان لا بأس بذكر طرف مما سمعناهُ من الفريقين . فابناء العرب لا يخلو بعضهم من عتب على الترك ولكن العاتبين عليهم وغير العاتبين والمؤاخذين لهم والعاذرين متفقون على القول بان الترك مرتابون في اخوانهم العرب اما العاتبون عليهم والمؤاخذون لهم فيقولون انهُ لا يحق للترك ان يرتابوا في العرب بوجه من الوجوه بل يحق للعرب ان يعتبوا على الترك لانهم اظهروا ارتيابهم هذا ببعض افعالهم ولانهم لم يثبتوا لنا محافظتهم على المساواة فعلاً بيننا وبينهم كما هو مقتضى القانون الاساسي الذي هو اساس نظامنا في دولتنا والذي يجب ان نجعلهُ كذلك قولاً وفعلاً لا قولاً فقط

واما العاذرون للترك من العرب والمعتذرون عنهم فيقولون ان الترك بشر مثلنا ولا عجب اذا ارتابوا فينا بعد الذي رأوهُ منا

وبين الفريقين اخذ وعطاء وجدال كثير من هذا القبيل . فالعاذرون للترك والمعتذرون عنهم يقولون لنفرض اننا نحن في مكانهم وهم في مكاننا أفما كنا نرتاب فيهم كما ارتابوا فينا . فاولاً قام منا العابد وابو الهدى والمخمة واخوهُ والشيخ فلان والسيد فلان واتباعهم وحواشيهم في عهد عبد الحميد وفعلوا ما فعلوا في عهد الاستبداد مما اسخط الترك ورسخ ذكرهُ

في اعماق نفوسهم . وثانياً لم يكد الحزب الحمدي يقوم في الامتانة حتى رنّ صداهُ في دمشق الشام ولولا انتصار جيش الحرية هنا لخلفنا من قومة عظيمة على الدستور في ولاية سورية وربما لم يقتصر ذلك على ولاية سورية وحدها بل ظهر ايضاً في ولايات أخرى عربية . وثالثاً انشأ قوم من ابناء العرب صحفاً يخرضون فيها العنصر العربي على الاستقلال وقامت جرائد أخرى في مصر تنتصر لاستبداد عبدالحميد على نظام الدستور وتقول للمسلمين العرب الذين يقرأونها ان مجد الاسلام قد زال بزوال حكم ذلك الظالم وتسعى في قطع العلاقة بينهم وبين الدولة العلية . ورابعاً يأتي قوم من العرب المنافقين الى هنا من حين الى حين ويتقربون الى ذوي الحل والعقد والكلمة النافذة في هذه الايام بتسويد وجوه العرب ابناء وطنهم وتبييض وجوههم فيقولون لهم ان فلاناً وفلاناً من اهل بلدنا كانوا من الرجعيين او ممن يروم فصل العرب عن الدولة او ممن يضمر الشر للدستور ولكننا وقفنا لهم بالمرصاد واحبطنا سعيهم وفعلنا كيت وكيت مما يردُّ كيدهم في نحورهم . او يقولون لهم ان السواد الاعظم من اهل بلادنا يكون و ينوحون على عبد الحميد ويحسبون سقوطهُ ذلة للاسلام والمسلمين ولكننا جاهدون في تنوير اذهانهم وازالة هذا الخطاء من عقولهم وقس على ذلك كثيراً

أفتعتب بعد هذا كله على اخواننا الترك اذا ارتابوا فينا واوجسوا في نفوسهم خيفة منا

و يرد عليهم العاتبون انهُ اذا كان قد قام منا بغاة في عهد عبد الحميد فقد قام من الترك قوم اكثر منهم عدداً واشد بغياً وحسبنا ان عبدالحميد نفسهُ منهم فلا يحق لهم ان يرتابوا في امة بسبب ما جناهُ قوم يعدون على اصبع اليد الواحدة منها كما اننا نحن لا نرتاب في العنصر التركي بسبب ما جناهُ بعض افرادهِ

وانهُ ان كان قد قام في دمشق من اراد مقاومة الدستور فهؤلاء متابعون لا بادئون وقد تابعوا الجمعية المحمدية التي انشأها الترك في الامتانة . فليس من العدل ان نرتاب اخواننا الترك فينا بسبب ذلك كما اننا لا نرتاب فيهم بسبب الذين انشأوا الجمعية المحمدية منهم وفعلوا ما فعلوا

وان كان قد انشأ بعض منا جرائد او نشر مقالات تحرض العرب على الانفصال عن الدولة او تكرههم اليها الحكومة الدستورية فكم من جريدة لنا تثني بمدح الحكومة الدستورية كل يوم وتقاوم الجريدة او الجريدتين اللتين شذتا عن سائر الجرائد العربية . وكم من مقالة تنشرها جرائدنا العربية كل يوم وتوصي فيها بالاتحاد والوئام ونقول انهُ لا تقوم لنا قائمة الاَّ بالاتحاد التام

وان كان بعض المنافقين يتقربون الى ذوي الحل والعقد بالافتراء على ابناء وطنهم ويقولون ان العرب يتحسرون على عبد الحميد ولا يخلصون للحكومة الدستورية فها جرائدنا تصدر طافحة باخبار اخلاص العرب للدولة العلية والحكومة الدستورية حتى انهم يجاهرون بحبها والتعلق بها من اقصاء انكرة الارضية . افليست الاعياد التي يعيدونها والافراح والولائم التي يقيمونها طوعاً من تلقاء نفوسهم وبلا تكليف احد لم ايام الاعياد الدستورية في كل بلادهم فيها دليلاً قاطعاً على اخلاصهم وصدق ولائهم وتكذيباً لكل من يفتري سوءاً عليهم فكيف يجوز بعد ذلك لاخواننا الترك ان يرتابوا منا او يسيئوا ظنهم فينا

بل كيف يجوز لهم ان يظهروا ارتيابهم هذا فينا باكسر قلوبنا وحل عزائم ضباطنا فانهم ارسلوا فاحضروا الضباط العرب من فيالقهم في سورية ومكدونية وجمعوهم في الاستانة بعد ما كان ضباطنا اشد اعوانهم في اعادة الدستور اولاً وفي حفظه اخيراً ولهذا استاء ضباطنا وحاروا في امرهم لانهم لا يدرون سبباً لارتياب اخوانهم فيهم . ونحن ايضاً مستاؤون استياءهم وشاعرون بان هذا الارتياب يضرنا ادبياً اذا لم نشعر الآن بانهُ يضرنا مادياً

وعلى هذا المنوال كان يطول الجدال بين الفريقين في عدة مجالس حضرناها واوردنا طرفاً فقط مما كان يقال فيها . ولكننا ادركنا منها امراً ذكرناهُ آنفاً وهو اتفاق الفريقين على ارتياب الترك في امر العرب وبناء على ذلك سألنا قوماً من الترك عن امر هذا الارتياب آملين ان نصل الى ما يجلو حقيقة اسبابهِ ويزيلهُ اذا كان موجوداً . وسنذكر محصل ما سمعناهُ منهم في مقالة تالية ثم ننتقل الى ما سمعناهُ عن العنصريين الروسي والالباني وبالله التوفيق

ثبت ان فريد باشا ناظر الداخلية العثمانية استعفى من وظيفته وان طلعت بك رئيس مجلس المبعوثان الثاني سيعين ناظراً بدلاً منهُ فتم بذلك ما كان ينتظر حينما كنا في الاستانة واشرنا اليهِ في ما مضى . اما طلعت بك فلا يزال مع وفد المبعوثان في بلاد الانكليز ولكن ما سمعناهُ عنهُ من الذين يعرفونهُ حق المعرفة يقوي الامل بانهُ ينجح في نظارة الداخلية كما نجح صديقهُ وزميلهُ جاويد بك في نظارة المالية

اما اخبار الشركات البرقية عن كريت فتوهم القارئ باكثر مما ينتظر وقوعهُ في مسألتها . فما لا يرتاب فيهِ رجال الاستانة ان دولة اليونان وحدها لا تحارب الدولة العلية مطلقاً لا على مسألة كريت ولا على غيرها . وانهُ لا يكاد يحتمل وقوع حرب بينهما الاَّ اذا اتحدت البلغار واليونان معاً وذلك قليل الاحتمال جداً ولاسيما في هذه الايام التي يزداد فيها

الصفاء وتحسن العلاقات يوماً فيوماً بين الدولة العلية وانباغار

بقي أن كريت نفسها تشق عصا الطاعة وتجاهر بالعصيان وذلك كان كثير الاحتمال في عهد الحكومة الحميدية ولكنهُ بعيد الوقوع في عهد الحكومة الدستورية . وعسى انهُ لا يقع مطلقاً اولاً لخير كريت نفسها وثانياً لكي لا يشغل الحكومة العثمانية عن الاصلاحات الداخلية

ولكن هب انهُ وقع فعاقبتهُ معلومة ورجال الدولة يظنون انهُ لا يحملها مشقة عظيمة . قال لنا رجال من ضباط الجيش العثماني والاتحاد والترقي ونحن في الاستانة لا تقيسوا على الماضي فلو ثار الالبانيون في ايام عبد الحميد لما قمع ثورتهم جيش جرار في شهور واعوام ولكن جاويد باشا اخمد ثورتهم بجند قليل في ايام . وهكذا ثورات كريت التي كانت تدوم الزمان الطويل في سالف الاعوام لا تدوم الاَّ ايامًا امام جيشنا الحالي وقوادنا الابطال الذين لا يعرفون الاَّ النصر او الموت في ساحات القتال

ولهذا كلهِ نظن ان اهل كريت لا يستفزون الدولة الى القتال الاَّ اذا استفظوا وعيل صبرهم على هذه الحال

(٦) العناصر العثمانية — اتحادها وانشقاقها

الترك والعرب ايضاً

لما مررنا بازمير ونحن ذاهبون الى الاستانة سألنا عالمًا تركيًّا من رجال الاتحاد والترقي مسائل كثيرة عن الدستور و نصارهِ ومقاوميهِ وثبات نظامهِ وما يخشى منهُ عليهِ . وكنا نكلمهُ بالعربية المعربة فيجيبنا بمثلها ولكنهُ لا يفهم لغتنا العامية كما لا نفهم نحن اللغة التركية فلما انتهينا من سؤالهِ عما شئنا قال لقد سألتموني عن كل ما عنَّ لكم بكل صراحة وحرية وطلبتم مني ان اجاريكم بكل صراحة وحرية فلبيتكم كذلك عما سألتموهُ عن العلماء والفقهاء كما اجبتكم عما سألتموهُ عن الاكليروس والرؤساء الروحيين عند العثمانيين غير المسلمين . فأنا اطلب ان اسألكم الآن سؤالاً واحداً بكل صراحة وحرية واريد ان تجيبوني عنهُ كذلك ولا تؤاخذوني بسؤالهِ كما اني لم اؤاخذكم بشيء سألتموهُ لعلي انكم طلاب حقائق وانا طالب حقيقة مثلكم

فقلنا سلوا ما بدا لكم فانا اخوان مخلصون في خدمة الدولة والاوطان . والاخلاص يوجب علينا السؤال والجواب بتمام الحرية

قال أصحيح ان العرب السوريين يكرهون الانتماء الى الدولة العلية ويطلبون الانفصال عنها والالتحاق بمصر وجعل مصر وسورية مملكة عربية مستقلة عن السلطنة العثمانية الدستورية

فلما سمعنا هذا السؤال تبسمنا وقلنا في نفسنا لو كان الذين يلقون الاقوال على عواهنها يفكرون في عاقبة اقوالهم قبلما يفوهون بها بلا تبصر ولا روية لكان الذين يكثرون من شقشقة اللسان في مصر مثلاً يحترزون في التلفظ باقوال هي بالذات ضرب من المحال وعاقبتها الضرر على كل حال اذ صاحبنا لم يسألنا هذا السؤال الا بعد ما سمع طرفاً مما يهذي به بعض صغار الاحلام في مصر مثلاً

ثم قلنا لهُ انكم طلبتم منا ان نجيبكم بالصراحة والحرية وعليهِ نقول لكم انكم لو سألتمونا هذا السؤال قبل اعلان الدستور لكنا نجيبكم اننا نحن انفسنا لود ذلك وتمناهُ لانقطاع املنا من الخير والاصلاح في حكم عبد الحميد. اما الآن وقد اعلن الدستور فآراؤنا وامالنا نحن وغيرنا قد تغيرت كلها تغيراً تاماً دفعة واحدة وليس منا من يسعى في ضم سورية الى مصر او من يفكر في ذلك. فما سألتمونا عنهُ غير صحيح والسوريون عموماً على اختلاف مذاهبهم وطوائفهم يأبون الآن الانفصال عن الدولة العلية والالتحاق بمصر او بغيرها

فلما سمع منا هذا القول بدت عليهِ علامات الارتياح والاطمئنان وقال لنا صريحاً انهُ لا يشك في صحة جوابنا بعد الآن لا هو ولا غيرهُ من اخوانهِ. فادركنا من ذلك الحين انهُ لا بد وان يكون قد علق بنفوس الترك شيء من الريب في العرب السوريين على الاقل

ولما اتينا الاستانة وسمعنا العرب يجاهرون ويتجادلون فيها بمعنى ما اوردنا طرفاً منهُ في مقالتنا السابقة رأينا من الواجب علينا مفاتحة الترك بذلك والاطلاع على ضمائرهم وجلاء الاذهان من صدإ الريب ان كان ثم محل لذلك

على اننا طرقنا هذا الباب مراراً فلم نكن نلج على من نسألهم علامات الارتياح الى البحث في هذه المسألة او كنا نجاب اجوبة لا تشبع او لا تفي بالمطلوب الذي نريد معرفتهُ

وكان مؤدى الاجوبة بوجه الاجمال انهُ ليس هناك ارتياب في العرب وما يتحدث بهِ الناس خلافاً لذلك غير مطابق للواقع بل هو ناتج عن وهم او عن سوء فهم ونحو ذلك. فجعلنا نقول في نفسنا تارة يمكن ان يكون اخواننا ابناء العرب مخطئين في ظنهم وان يكون الوهم غالباً عليهم وتارةً يمكن ان اخواننا الترك يحسبون محاورتنا عن هذه الاسئلة بالصراحة والحرية مما يؤلم عواطفنا فيجتنبون ذلك ملاطفةً ومراعاةً منهم لنا. ونبني ظننا الاخير هذا على ما لحظناهُ من كلام العالم التركي في ازمير تمهيداً لسؤالهِ عن العرب السوريين

ولكننا لم نقف عن السؤال عند مثل ذلك الجواب في حديث جرى لنا مع بعضهم بل قلنا لهُ ولكن بلغنا ان ضباط الجيش استدعوا اخوانهم الضباط العرب من دمشق ومكدونية الى

الاستانة وبقوهم فيها وان ضباط العرب مستاؤون من ذلك لظنهم انهم لم يستدعوا الى الاستانة الاَّ حذراً منهم وارتياباً فيهم مع انهم من اشد الضباط العثمانيين اخلاصاً وغيرة على الدستور والدولة

فقال اننا لم نفعل ذلك مع الضباط العرب وحدهم بل مع آخرين من الترك وغيرهم فنقلناهم من الاماكن التي كانوا فيها الى الاستانة لاسباب اقتضتها الاحوال العسكرية لا لارتياب ولا لسوء ظن . ومثل هذا النقل والتغيير كثير في الجيش ولكن يظهر ان الضباط العرب شديدو التأثر والانفعال وشديدو الميل ايضاً الى حمل ما يجري في الجيش على التمييز بين التركي والعربي فاذا جرى مثلاً امر بين التركي والعربي على حد سوى فالتركي يقبله على بساطته اذ لا وجد له ليحمله على غير ذلك واما العربي فلكونه غير تركي يتبادر الى ذهنه انهُ لا بد لذلك الامر من سبب غير السبب البسيط ويحسب ذلك السبب طبعاً التمييز بين العربي والتركي او نحو ذلك

فرأينا حينئذٍ انهُ يحتمل ان يكون كثير مما يقال عن ارتياب الترك في العرب ناتجاً عن الوهم او الخطاء في الفهم وقلنا لمن اجابنا هذا الجواب كنا نود ان يوجه اخوانكم انتباههم الى هذا الامر الجلل ويجتنبوا كل سبب يؤثر تأثيراً سيئاً في نفوس العرب . فنحن لا نجهل انهُ وان كان القانون الاساسي يوجب الحرية والمساواة والاخاء على العثمانيين كلهم فانتم الترك تمتازون الآن بمقتضى طبيعة الحال . ولو ساعدتنا التقادير نحن العرب كما ساعدتكم لسبقناكم الى اعادة الدستور منذ زمان طويل . فالكل يقولون ان مدحت باشا هو ابو الدستور وواضع القانون الاساسي ولكن يجب ان تعلموا اننا نحن السوريين تلامذة مدحت باشا واننا تلقينا الدستور عنهُ رأساً ايام كان والياً على سورية وان قلوبنا اشربت حب الدستور وروحهُ سرت فينا منذ كان مدحت باشا بيننا . وان شبابنا الاحرار المستنير العقول والمثقفين بالمعارف والعلوم عقدوا للدستور الجمعيات السرية منذ اكثر من ثلاثين سنة . ولو وجدوا عوناً من الجيش كما وجدتم ولو أيدوا من حولهم كما أيدتم من قومكم لفازوا باعادة الدستور قبلما يبصر اكثركم النور . ولكن الاقدار لم تتأنَّ لهم ما شاءتهُ لكم فتفرق شملهم وقضوا معظم سني عمرهم ما مستترين في الخفاء او مهاجرين وغرباء او مجاهدين ومناضلين في سبيل الحرية العثمانية على قدر الطاقة خارج بلادهم . لكن الدستور نما في قلوب كهولهم وانتقل الى شبانهم واحداثهم . ولكن الله سبحانهُ وتعالى ابقى لهم فخر اعادته لكم . وهم يغبطونكم على ذلك الآن ولكنهم لا يحسدونكم . ولما سمعوا بفوزكم باعلان الدستور ودك صروح الاستبداد سروا وفرحوا وحسبوا فوزكم فوزاً لهم واعجبوا برجالكم واطنبوا في مدح ابطالكم وجاهروا جهاراً بانتصارهم لكم وتعلقهم بكم كأنكم من جملة

آحادهم بلا فرق ولا تمييز وحسبوا اعادتكم للدستور منة عظيمة قلدتموهم اياها فهم يشكرونكم عليها طول العمر ولا ينسونها لكم ابد الدهر ولكنهم يحسبون ان معاملتكم لهم تكون كمعاملتهم لكم لو اعلن الدستور على يدهم اي ان يكون العثمانيون كلهم اخواناً في الحقوق والواجبات على اختلاف عناصرهم واديانهم . وهذا هو اعتقادهم الوطيد فيكم وهذا ما يطلبونهُ ويتمسكون بهِ ولا يرجعون ابداً عنهُ . على انهم مع محافظتهم على هذا المبدإ الكلي الجوهري بكل قوتهم يراعون مقتضى الحال في اخراجهِ من القوة الى الفعل . ويرون ان الحال تقتضي الآن ما لا بد منهُ في اول الامر بطبيعة الشيء وهو ان تكون الارجحية لكم في تدبير الامور حتى لا يقع ارتباك فيها ولا يتعذر على العثمانيين بلوغ النجاح بمزاحمة بعضهم بعضاً عليها . ولهذا تروننا مع تمسكنا بمبدإ المساواة التامة نظرياً مسلمين بالرجحان الآن لكم فعلياً . ونشبه حالتنا في مملكتنا بحالة البريطانيين في مملكتهم . فالانكليز منهم لا يزال لهم الرجحان فعلاً في امور كثيرة على الاسكتلنديين والارلنديين والولش وان يكن قانونهم يقضي بالمساواة قطعياً . ولكننا تنتظر منكم المراعاة التي ينتظرها سائر البريطانيين من الانكليز . فكل امرئ يرى الانكليزي يراعي اخوانهُ البريطانيين فيقول لا احسب هذه المزية لنفسي حتى احسب ما يقابلها للاسكتلندي والارلندي واين ويلس . ولا افعل هذا الامر لابنائي الا بعد ما ابقي محلاً لعتب ابناء اسكتلندا وارلندا وويلس وقس على ذلك . وانتم يجب ان تجعلوا هذه المراعاة دائماً نصب عيونكم وتتذكروا ان اخوانكم العرب وسائر العناصر تتأثر تأثراً عظيماً وتكبر اقل اغفال منكم لهذه المراعاة نظراً الى رجحان كفتكم الآن . واما اذا لم تراعوا هذه المراعاة مع العناصر الاخرى بل اغفلتم ذلك كما كان قومكم يغفلونهُ في العهد السابق فالشقاق يعود على الامة العثمانية عوضاً عن الاتحاد والعاقبة تكون وبالاً على السلطنة

فكان محدثنا يوافق على اقوالنا هذه ويظهر رغبة العنصر التركي الخالصة في مراعاة جميع العناصر العثمانية الاخرى وازالة كل عتب او تأثير من نفوس العرب ويعد بان قومهُ لا يغفلون شيئاً من ذلك وخصوصاً بعد ما يتفرغون قليلاً مما يشغلهم من الشواغل الاخرى الكلية ويجسر لهم الاهتمام بهذه الامور الحرية بالاهتمام

ومع اننا شعرنا بانا لم نعرف البواطن جلياً في هذه المسألة وانا لم نقف على الاجوبة التي تمكننا من معرفة حقيقتها لكن رأينا هو ان الترك والعرب متحدون وان اتحادهم اتم من اتحاد سائر العناصر العثمانية الاخرى . وان الريب الذي يمكن ان يداخل قوماً من الفريق الواحد والاستياء الذي يشعر بهِ قوم من الفريق الآخر لا يدومان طويلاً اذا تم امر ان احدهما ان

الترك يراعون حسنات العرب وخواطرهم و يظهرون جليًّا انهم يقدرونهم قدرهم في معاملتهم لهم والآخر ان العرب يكاشفون الترك جليًّا بما يسوءهم منهم ويعاتبونهم صريحًا على ما لا يرضيهم من افعالهم و يظهرون اخلاصهم الحقيقي لهم ولا يقتصرون على الشكوى بعضهم الى بعض وعدم ابلاغ الترك شكاويهم . ولازم هذين الامرين ان يزداد الفريقان تمازجًا وتعاشرًا ويزول التكلف من بينهما على قدر الامكان . وذلك مرجح الوقوع كما طالت المدة على نواب العرب في مجلس المبعوثان فان هؤلاء النواب الذين هم من خيرة ابناء العرب يصح ان يقال انهم أُخذوا في المجلس هذه السنة على غرة لانهم وان كانوا يعرفون اللغة التركية فاكثرهم لم يعتد الخطابة بها ولا اعتاد الحالة التي اصبح فيها لما اتى الاستانة كما اعتادها ابناء الترك في تلك المدينة وغيرها . فنأتي عن ذلك طبعًا ان الذين ظهروا معظم الظهور في المجلس هذه السنة اكثرهم من ابناء الترك او الذين وضعوا اللغة التركية مع اللبن وعاشوا طول عمرهم مع اهلها . واما نواب العرب فاكثرهم لم يتيسر لهم بعد اظهار فضلهم ومقدرتهم من العلم والعقل ولا تيسر لهم ايضًا ان يطبعوا على نفوس الترك الصورة التي يحبون طبعها عن العرب . ولكن اذا اصاب ظننا فنوابنا الكرام قد اقفوا اليوم الحالة التي كانت غريبة عليهم في اول هذا العام وهم يستعدون منذ الآن لاظهار فضل قومهم العرب الكرام في جلسة العام المقبل

فبحسن مساعيهم وبما تقدم من الملاحظات لا نخشى من وقوع شقاق سيء العاقبة بين العرب والترك بل نؤمل انهُ على توالي الايام يقوى اتحادهما حتى يصيرا قدوة لسائر العناصر العثمانية في الاتحاد والوئام

وحبذا لو صح ذلك على الترك والروم وسيأتي عليها الكلام

(٧) العناصر العثمانية — اتحادها وانشقاقها

الروم وشأنهم الخطير

لما كان العثمانيون متفقين رأيًا على ان اعظم اسباب تأخرهم وتأخر دولتهم هو تعدد عناصرهم واختلاف اديانهم لم يكد الدستور يعلن بينهم حتى صاروا يبحثون في هل يتيسر للدستور لمّ شعثهم وجمع كلمتهم والتغلب على ما يحول دون ذلك من تعدد عناصرهم واختلاف عقائدهم . او هل يعجز عن التغلب عليهما ويقضي الامر بسببهما الى زيادة التأخر والضعف حتى تتلاشى الجامعة العثمانية ويزول كيان الامة والدولة لا سمح الله . والظاهر ان الرأي الغالب على البلغين كان ان لا خوف من انفصال العرب عن الدولة

العثمانية مهما ارجف المرجفون · فالدستور يمكن ان يؤلف بين العرب والترك ويجعلهما عضوين حيين متفقين في جسم الامة العثمانية لانهُ مهما اختلف الترك عن العرب لم يزد اختلافهما عن اختلاف اهل بعض الولايات العربية كولاية بيروت مثلاً عن اهل ولايات اخرى عربية كولاية اليمن او احدى ولايات العراق · بل اننا اذا دققنا البحث وجدنا بين المتعلمين والمتهذبين واللذين اكثروا من الاسفار ومعاشرة الامم من العرب والترك جامعات كثيرة تجمعهم معاً ولم نجد بينهم وبين المتأخرين من قومهم غير جامعة او جامعتين بحيث يسهل على هؤلاء الترك والعرب الاتحاد والاتفاق اكثر كثيراً مما يسهلان على العرب من اهل الولايات السابقة والمتأخرة وكذلك على الترك السابقين والمتأخرين

ويقال ايضاً بوجه الاجمال ان المسيحيين من ابناء العرب يفضلون الاتحاد مع الترك الدستوريين على الاتحاد مع اهل الولايات العربية التي لا يهمها امر الدستور · ولا يختلف اثنان منهم في ان الاتفاق مع رجال مستنيري الاذهان كالاعضاء الترك في جمعية الاتحاد والترقي مثلاً احب اليهم واسهل عليهم بكثير من الاتفاق مع قبائل البادية او عرب الولايات المتأخرة · وعليه يكون كثيرون من العرب اميل الى الاتحاد بالترك منهم الى الاتحاد بعضهم ببعض ولا يكاد يحتمل ان يتحد العرب اتحاداً عاماً ويطلبوا الانفصال عن الدولة الاَّ اذا اضطروا الى ذلك رغماً عنهم لسبب من الاسباب التي لا يصبر عليها الناس كأن يجور الترك عليهم مثلاً ويحملوهم فوق طاقتهم ويذلوهم ويمتهنوهم ويهضموا حقوقهم التي يمنحهم الدستور اياها فحينئذٍ تجمعهم الشدائد فيتحدون للدفاع عن حياتهم وحريتهم وحقوقهم · ولكن الامل وطيد انهُ لا يقع في عهد الدستور شيءٌ من هذا القبيل

وكان الرأي الغالب ايضاً ان مزايا الدستور تتغلب على ميل الارمن الى الاستقلال · لانهُ متى تمتع الارمن بكثير من النعم الدستورية التي كانوا لا يذوقون لذتها في عهد الاستبداد يغلب عليهم الرضى ويضعف فيهم الميل الى الاتحاد القوي على الدولة وطلب الانفصال عنها

على ان نتيجة المذابح الاخيرة لا بد وان تضاد هذا الرأي بعض المضادة لسوء الحظ ولكن سعي الحكومة العثمانية الآن في اجراء العدل واقامة الحق وانصاف المظلوم من الظالم لا بدَّ وان يزيل معظم تأثير هذه المذابح من نفوس الارمن · وحينئذٍ يصح الرأي الذي كان الناس يرونهُ بعد اعلان الدستور ويترجح ان الارمن يكونون عضواً حيًّا عاملاً في جسم الامة العثمانية ايضاً

على ان رأي معظم الباحثين كان بخلاف ذلك عن الروم · والمراد بالروم اليونان

التابعون للدولة العلية تمييزاً لهم عن المستقلين المعروفين باليونان . فهؤلاء الروم او الارومان تختلف حالهم عن احوال سواهم من العناصر العثمانية في كونهم من جنس واحد هم واليونان المستقلون اذ ليس بين العناصر العثمانية عنصر غيرهم له من قومه شقيق مستقل ومملكة قائمة يرأسها

ومما هو مشهور عن الروم واليونان ان الجامعة القومية شديدة فيهم جداً واميالهم الوطنية على غاية القوة وحب الاستقلال فيهم لا يقل عن حب الاستقلال في نفس كل امة مستقلة حية . فلذلك ولاختلاف حال الارومان عن احوال سواهم من العناصر العثمانية كما تقدم كان الرأي الغالب من بدوء الامر انهم سيكونون حائلاً هائلاً وسداً محكماً في سبيل اتحاد العناصر العثمانية لكي لا يتكون منها في عالم الاجتماع جسم واحد هو الامة العثمانية منفصل ومستقل عن كل امة أخرى وخاضع لراية واحدة ولنظام دستوري واحد

وزد على ما تقدم ان ضعف الدولة واختلال ربط الامة في عهد عبدالحميد خصوصاً قوّى اعتقاد الناس بقرب مصير الدولة الى الزوال وزين لبعض العناصر اموراً لم تكن تحلم بها لولا ذلك . فلا عجب اذا عاشت في الروم الآمال بعد ما طوتها الايام وفكر قوم منهم في استرجاع بلاد آبائهم واجدادهم واملوا ان يكون ذلك نصيبهم من تركة « الرجل العليل » بعد اقتسامها وان يظفروا بالاستقلال والانضمام الى اخوانهم واعادة مجد مملكة اليونان . كل ذلك طبيعي والنفس ميالة اليهِ وما من عنصر الاّ ويقع فيهِ اذا حلّ محل الارومان وجرب تجربتهم

ومما يسوءنا ذكرهُ ان رأي الباحثين تحقق ومن قلة التوفيق ان الخلاف وقع بين الترك والروم قبل ان تتخلص من محنة الترك والارمن ولا حاجة بنا الى تفصيل ما وقع بينهم وشرح اسباب ذلك الخلاف والنزاع فقد اطلع القراء عليها كلها بالاسهاب في المقتطف . وانما نقول اننا لما وصلنا الى الامتانة وجدنا الخواطر مضطربة فيها بسبب هذا الخلاف اضطراباً شديداً انسى اهلها ما سواهُ من المشاغل والمشاكل وان المجادلات الشديدة التي كانت تجري حينئذٍ على بعض المسائل في مجلس المبعوثان كمسائل التعليم والجمعيات ونحوها كان الترك يحسبون ان الارومان هم الذين يضرمون نارها ويحمون اوارها وانهُ لولاهم لما عارض المعارضون تلك المعارضة فيها

وقد حادثنا رجالاً مختلفين من الترك في امر هذا الخلاف فكنا نرى منهم تألماً شديداً منهُ وتململاً وتذمراً من اضطرارهم الى الصبر عليهِ . لان الاعتقاد الغالب عليهم هو ان الروم يفعلون ما يفعلون تحكماً وتحرشاً بهم وتعمداً لتكدير صفوهم والقاء المشاكل في سبيلهم لكي

لا ينجحوا في اصلاح الاحوال وتدبير الامور علماً منهم انهُ اذا جرى الاصلاح وتحسنت امور الدولة خابت آمالهم من الحصول على التركة واسترجاع ميراث آبائهم واجدادهم فهم يخلقون المشاكل عمداً ويقصدون توسيع الخرق قصداً

ومما زاد الطين بلة حدوث مسألة كريت في هذه الآونة ووقوف الاروام في موقف حرج جداً بسببها لانهم اذا اظهروا ميلهم الى الكريتيين واليونان اغتاظوا العثمانيين واذا اظهروا ميلهم الى العثمانيين اغتاظوا اخوانهم في الجنس واغضبوا الذين يميلون اليهم بالطبع . فلتعدد المشاكل من جهة ولحدوث المسألة الكريتية من جهة اخرى اشتد الجفاء جداً بين الروم والترك في الاستانة خصوصاً . ولما كان الروم عثمانيين مثلنا وكانوا بحسب نص القانون الاساسي اخواننا وبنا وفينا يجب لهم وعليهم ما يجب لنا وعلينا فكل عثماني عاقل يود تدارك هذا الخلاف بما يزيلهُ ومعالجة هذه الحالة المعتلة بحسن السياسة والحكمة . اذ العلاج الوحيد الذي يجب ان يلجأ العثمانيون اليهِ وان يسابق عقلاؤهم في مضمارهِ هو الحكمة وحسن السياسة للتأليف بين القلوب المتنافرة والتوفيق بين المتخالفين . واما ما سواهُ مثل قيام قوم على قوم وذبحهم بعضهم بعضاً واحراق منازل بعضهم البعض فمن الوسائط الفظيعة التي كان الناس يلجأون اليها في عهد الجهل والتوحش والخشونة ويعاب عليهم الاعتماد على اقل شيء منها في عهد العلم والتمدن والحرية

ولهذا قلنا يوماً لبعض النابغين من شبان الاتحاد والترقي لماذا لا تجتنب الحكومة ومجلس المبعوثان الآن كل مسألة لها تعلق بالاختلافات الجنسية والدينية ولماذا لا يقتصر بحثهما على المسائل العمومية التي هي اولى بالنظر والاهتمام اليوم فانهما لو فعلا ذلك لقضيا مصالح الامة واغنياها عن هذه المشاكل القومية والمذهبية

فقال واي المسائل العمومية تعنون . قلنا اننا نعني مسائل الادارة والقضاء والمالية فالبلاد العثمانية كلها بلا استثناء محتاجة الى اصلاح هذه الامور اشد الاحتياج اذ ادارة الولايات مختلة معتلة ولم تكد تختلف في عهد الدستور عما كانت عليهِ في عهد الاستبداد بل لا تزال شكوى الناس ماثلة الآفاق ولولا الاحكام العرفية التي وضعت على بعض الولايات فارهبت اهالي الولايات الاخرى ولولا بعض المأمورين الاكفاء المتصفين بالحزم والشدة في حفظ الامن العام لكان اهل الولايات الآن فوضى يسودهم طغامهم ولا امان لهم على ارواحهم واعراضهم واموالهم . ثم ان المحاكم العثمانية لا تزال اسماً بلا مسمى والقضاء شبح بلا روح والعدل لا عين لهُ ولا اثر والاعشار آفة على الفلاح والضرائب ثقل كاهل الاهالي والخزينة

العثمانية في احتياج لا يوصف الى المال . ولو سألت العثمانيين كلهم لاجابوك على اختلاف مللهم ونحلهم ان حاجتنا الكبرى هي الى اصلاح هذه الامور الكبرى واننا نطلب تقديم النظر فيها على النظر في كل ما سواها فلماذا لا نصرف همنا الآن الى اصلاح هذه الامور التي تتفق العناصر كلها فيها . ثم اننا متى اصلحناها وتبين نجاحنا فيها قويت حجتنا عند الجمهور في اصلاح ما سواها وسهل علينا ان نستميلهم الى رأينا وان نحبط مساعي الذين يقصدون معاندتنا ومشاكستنا لافساد عملنا وقضاء مآربهم

فقال ان هذا ما نحن جارون فيه الآن وشرح لنا بعض المشروعات التي تضعها الحكومة العثمانية الآن لاصلاح الادارة والقضاء والمالية (وربما ذكرناها في مكان آخر)

ثم قال اننا نحن لا نريد التعرض للمسائل التي تلقي الاختلافات الجنسية والمذهبية بل نسعى جهدنا في اجتنابها ولكن الاروام هم الذين يفتحونها ويضطروننا الى مناقشتهم فيها رغماً عنا كمسألة التعليم مثلاً فان المشروع الذي عرض على مجلس المبعوثان كان مما يتعلق بامر التعليم والمدارس في الحال بلا نظر الى ما يكون في الاستقبال فابى الاروام ومبعوثانهم الاّ توسيع نطاق البحث في المسألة واكراهنا على البت في امر التعليم والمدارس في المستقبل كالبت بها في الحال . وهكذا شأنهم معنا في سائر الامور فانهم يقصدون معاندتنا واعناتنا

ولما اطال الشكوى من هذا القبيل واكثر من التألم من معاندة الاروام ونسبها الى دسائس اليونان قلنا وما الذي تقصدون ان تفعلوه لاصلاح هذه الحال وما هو الرأي عندكم في حل هذه العقدة . فقال الرأي عندنا ان نقابلها بمزيد الصبر وسعة الصدر وتركهم وشأنهم ولا نقابلهم الاّ بالطرق الدستورية والوسائط القانونية حتى يكلّوا ويفرغ جهدهم ويكفوا عن معاندة لا تنفعهم ولا تضرنا لاننا واثقون بقوتنا فلا نخشى بأسهم اذا ارادوا ان يخرجوا مساعيهم من القوة الى الفعل ليضروا بنا وفي ما سوى ذلك فما زام الامر كله كلاماً في كلام فاننا نقابلهم ايضاً بالكلام حتى يعودوا الى طلب الاتفاق والوئام

فلما رأينا هذا الاطمئنان التام من محدثنا وفهمنا ما يتوبه الترك ومن معهم من العثمانيين من جهة الاروام احببنا ان نقف على آراء الروم ايضاً فقصدنا الفنار حيث تتفضل غبطة البطريرك المسكوني بحديث طويل عما نلخصهُ في مقالة تالية

(٨) الروم وغبطة بطريرك الفنار

مقبرة ايوب اشهر مقبرة في الاستانة تضم رفات عدد عديد من اولاد السلاطين وعظام

الوزراء وقواد الجيوش العثمانية واكابر رجال الدولة وشيوخ الاسلام والذين كان لهم الصول والطول في زمانهم من الخصيان وفيها القبور المزخرفة والتحف الفاخرة . قصدناها صبيحة يوم مع حضرة الفاضل الانوكاتو خليل بولاد فاكبرنا ما فيها من المدافن والقبور ووددنا لو تيسر لنا قضاء الوقت الكافي في تنقد اضرحتها وقراءة ما كتب عليها لان الانسان يستخلص منها تاريخاً نفيساً عظيم القيمة حاوياً اكثر الذين نبغوا من رجال الدولة . وحبذا لو قام من ادباء الاستانة من يفعل ذلك قبل ان تذهب عوامل الاهمال والاغفال البادية آثارها على تلك المدافن والقبور بكثير مما قد نقش على تلك الاضرحة من الاسماء والالقاب والتواريخ

وسرنا اليها في طريق ضيقة تعاف النفس المسير فيها ويقلق راكب المركبة من كثرة الطقطقة في مسيره على بلاطها . وبينا نحن نلوم الدليل لانهُ سار بنا في هذه الطريق ولم يوافقنا على المسير في قرن الذهب كما كان مرادنا كان من جملة ما اعتذر به الينا اننا قربنا من بطريركية الفنار وهي مكان تاريخي شهير يقصد السياح رؤيتهُ من الاقطار . فقبلنا عذرهُ حينئذٍ وقلنا سربنا اذاً الى بطريركية الفنار حتى اذا دنونا منها زالت الصورة العظيمة الفخيمة التي كانت مرسومة لبطريركية الفنار في الخيال وارتسمت على ذهننا صورة بيت كبير ليس فيهِ شيء من آثار الهندسة او النقش والنحت او الزينة والزخرفة وانما عظمتهُ ومهابتهُ قائمتان بكونهِ بناء قديماً ومعهداً عظيماً بل اعظم معهد نصراني في الشرق كلهِ . فشعرنا حين رؤيتهِ بمثل ما شعرنا حين رأينا الباب العالي ودخلنا منهُ الى الدواوين التي في ساحتهِ او كما شعرنا حين دخلنا مدينة اكسفورد ونظرنا مدارسها وكنائسها لاول مرة ورأينا ان قديمتها هي سر عظمة مبانيها ومهابتها

ثم سألنا عن غبطة بطريرك الفنار واعربنا عن رغبتنا في التشرف بمقابلتهِ فقيل لنا انهُ يقضي الصيف في مكان على البسفور وضربلنا ميعاد يقابلنا فيهِ اذا اتينا الفنار فشكرنا وانصرفنا

وفي يوم الخميس (٢٩ يوليو) خرجنا من مشيخة الاسلام الجليلة حيث تشرفنا بمقابلة سماحة شيخ الاسلام ومحادثتهِ وقصدنا الفنار فاصعدونا حالاً الى قاعة قد جلس غبطة بطريرك الفنار في صدرها وعلقت على جدرانها صور من تقدمهُ من البطاركة فاحسن غبطتهُ ملتقانا . ولما وجد اننا لا نتكلم بالتركية ولا باليونانية اجلس ترجمانهُ يترجم بيننا لان غبطتهُ يفهم الفرنسوية ولكنهُ لا يحسن التكلم بها فشرحنا لهُ غرضنا من تلك المقابلة ولم نخف عن غبطتهِ ان المقام فتح ابوابهُ لشكوى اخوانهِ من المتنصرين الى طائفة الروم الارثوذكس في القدس الشريف وفلسطين وانهُ انتصر لهم ايضاً انتصاراً عظيماً وايدهم تأييداً شديداً لاعتقادهِ انهم مظلومون وان الواجب عليهِ اغاثتهم لدفع الظلم عنهم

فلما علم غرضنا (وظهر لنا انهُ لم يكن يجهل امر المقطم قبل تشرفنا بمقابلتهِ) شدد عزائمنا في القيام بخدمتنا حسبما تقضي بهِ ذمتنا وحسبما يقتضيهِ شرف الصحافة صناعتنا . وكل ذلك بعبارات منتقاة ومعانٍ سامية كان لها احسن وقع في نفسنا . ثم تنفس الصعداء وقال اننا نتهم في هذه الايام بمقاومة الدستور وعداوتهِ ولا ادري بأي وجه حق تجوز علينا هذه التهمة لاننا في الاصل من امة قد غرس حب الدستور في طبيعتها فصار يجري في دمائها ويتوارثهُ الابناء عن الآباء بالفطرة وزد على ذلك اننا ابناء كنيسة قد اشتهرت على مر الايام والاعوام بانها دستورية النظام وليس دستورية فقط بل دستورية ديمقراطية ايضاً . فكيف يمكن ان نكره الدستور او ان نعاديهُ حتى نتهم بانا اعداؤهُ والمقاومون لهُ . ألا إن الذين يتهموننا بمقاومة الدستور وبالانتصار للاستبداد ويتباهون بانهم أعوان الدستور وحماتهُ هم في الواقع ابعد الناس عن جادة الدستور واقلهم عملاً بمقتضاهُ واشدهم استبداداً . لانهم يريدون ان نقول في كل شيء قولهم وان نرى رأيهم وان لا نجري الاَّ على هواهم ومرادهم . واذا تمنعنا عن ذلك أو ابيناهُ لم يحاولوا ان يقنعونا بهِ بالبرهان والدليل او ان يحملونا على قبولهِ باظهار وجوه الفضل والصواب فيهِ بل قاموا يتوعدوننا ويتهددوننا ويجبروننا على مجاراتهم في آرائهم واهوائهم والجري على مشيئتهم ورغبتهم بالضرب والقتل والسجن والتعذيب واقبح وسائط الاستبداد . فلا ادري كيف يحسبون بعد هذا انهم انصار الدستور ويدعون انا اعوان الاستبداد

لا احد ينكر انهُ يحق لكل حكومة ان تحافظ على كيانها وتدافع عن نفسها وتقمع كل فتنة او ثورة عليها ولم أكن قطُّ لاعترض انا او غيري على سعي الحكومة العثمانية في قمع كل ثورة تبدو من الارواح واحباط سعي كل من يكيد منهم لها او يتآمر عليها . وانما اقول انهُ يجب اولاً اثبات حصول الثورة او وقوع المكيدة والمؤامرة . وبعبارة أخرى انهُ اذا شاع حدوث ثورة او مكيدة يجب قبل كل شيء التحقيق الدقيق لمعرفة ما اذا كان حدوث الثورة او المؤامرة صحيحاً او غير صحيح واذا كان صحيحاً فلمعرفة الداخلين فيها من المتهمين ومحاكمتهم ومعاقبتهم حسب نص القوانين ولمعرفة الذين لا دخل لهم فيها من المتهمين وتبرئتهم وعدم معاقبتهم

هذا الذي نطلبهُ من الحكومة العثمانية باعتبار كونها دستورية ذات نظامات ومحاكم وقوانين وهو واجب على كل حكومة دستورية واذا حادت عنهُ ولم تراعهِ لم يجز لها ان تدعي انها دستورية

فالذي حصل فعلاً في امر الذين اتهموا بالثورات او المؤامرات من الارومة العثمانيين لم يكن كذلك بل رأينا العساكر ترسل عليهم لمجرد شيوع خبر التهمة وتعمل سلاحها فيهم وتدير ايديها بالسلب والنهب في منازلهم وتستحل ما لا يحل وتستبيح ما لا يباح في معاملتهم قبل ان يجري تحقيق او تثبت تهمة او يعرف المذنب من البريء . فهذه الافعال ليست افعالاً دستورية بل هي افعال قلت للنوي الشان عنها انها وحشية برية لان كل ما تفعله الحكومة الى حد التحقيق جائز لها ولا يجوز لاحد انكاره عليها . واما في ما وراء ذلك فلا يجوز لها ان تخطو خطوة ولا تقوه بحكم ولا تمد يداً الى احد الا بعد التحقيق ومعرفة البريء من الاثيم

واطال غبطته بهذا المعنى . فقلنا وأي الروم تعنون غبطتكم أروم ايفالي في ولاية ايدين قال اني اعني هؤلاء وغيرهم في كل البلاد فان الاخبار التي تأتينا من كل جهة تدل على ان الناس يعاملون هذه المعاملة فيها . ثم امر الترجمان ان يعطينا صورة من الشكاوي والتقارير المرفوعة الى بطريركية الفنار . وقد تصفحناها فاذا هي حاوية اخبار ما اصاب الارومة من ضرب العساكر لهم وسجنهم وتهديد الرعاع بقتلهم ونهب منازلهم في ايفالي وما جاورها وكذلك اخبار الذين حكم عليهم ديوان الحرب بالسجن والعقاب لامور لا تعد جرائم ولا يعاقب الناس عليها في بلاد دستورية

وورد في تقرير منها ان عزيز بك القومندان العسكري الذي اتى ايفالي في ٦ يونيو الماضي قال لمطرانها انكم انتم ايها المطارنة ورجال الاكليروس عموماً تطمعون بالجامعة اليونانية وتطلبون النفس بها وتحرضون الاهالي عليها بتعليمكم لهم ان الواجب عليكم هو ان تنتصروا على اتمام واجباتكم الدينية وان تزيلوا الحاجز الذي تقيمونه بينكم وبينهم فضعوا عقولكم في رؤوسكم واعلموا اننا اعدمنا خمس مئة نفس من الصفاء المتعصبين مثلكم في الاستانة فلاحترز لنفسك مني . وكرر الوعيد ست مرات فتصل المطران عما يتهم به واحتج على ذلك الكلام . لكن عزيز بك لم يخل بكلامه وقال انكم تظنون ان اوربا تدخل في مسألتكم وانكم تخرجون فائزين . نعم اننا نخسر ولكننا لا نترك لكم قبل ذلك اثراً ينظر . فارجعوا عن تعصبكم وكفوا عن بث البغض في صدور بني جنسكم للعناصر الاخرى والا فعلت كيت وكيت مما لا فائدة من ذكره ولا غرض في ايراده وانما ذكرنا ما تقدم ليعلم القارىء مقدار التأثير الذي توثره تلك الشكاوي في من ترفع اليه

وقال غبطته ايضاً حدثت مسألة كريت هذه الايام وما منا من يقول انه يجب علينا ان

نرضى بفصل جزء من املاك السلطنة عنها واخذه بغيرها ولا يهون ذلك على احد من العثمانيين لكنا لزمنا السكوت في هذه المسألة علمنا ان امرها قد خرج من ايدينا وبات في ايدي الدول من زمان طويل وانهُ لا يجري فيها غير ما يقر عليهِ قرار الدول مهما اكثرنا من القول والوعيد والابراق والارعاد . واما رجال الاتحاد والترقي فلم يشاؤوا ان يفعلوا فعلنا بل قالوا واعترضوا كثيراً واحتجوا طويلاً . وماذا كانت النتيجة من ذلك كلهِ أغُيِّر قرار الدول ام رد الى الدولة شيئاً كان قد تقرر اخذهُ منها وفصلهُ عنها . فلا فائدة اذاً من صياحهم كما انهُ لا ضرر من سكوتنا ولكنهم لا يقنعون عند هذا الحد بل يتخذون سكوتنا دليلاً على اننا نكرهُ الدولة ونبغض الدستور ونطلب ان تؤخذ املاك الدولة العثمانية منها وتعطى لغيرها . وليس في هذا الاستدلال وجه حق ولا انصاف

اننا لا نكره الاتفاق ولا نقاوم الدستور . ولكن رجال الاتحاد والترقي يرمون الى غرض لا يمكننا ان نوافقهم عليهِ ولن نرضى ان نجاريهم فيهِ . فهم يقصدون ان يغلبوا قوميتهم على قوميتنا وان يبتلع العنصر التركي سائر العناصر العثمانية حتى لا تكون الامة العثمانية مؤلفة من عناصر مختلفة ومتحدة معاً في جسم واحد لها حقوق واحدة وعليها واجبات واحدة بل تكون الامة العثمانية كلها امة تركية يبتلع العنصر التركي سائر العناصر ويهضمها حتى تصير منهُ ولا يبقى لها وجود الاَّ فيهِ . فلهذا يريدون ان يغلبوا لغتهم على لغاتنا حتى لا يبقى شان لسوى لغتهم وان يغلبوا كل شيء خاص بهم على ما لسواهم حتى لا يبقى في السلطنة العثمانية غير الامة التركية . ونحن الروم قد حافظنا على جنسيتنا ولغتنا وعاداتنا وخصائصنا وديانتنا كل هذه القرون ولن نوافق الترك كل دهرنا على ان نضيع ما حافظنا عليهِ وان نصير منهم وان لا يبقى لنا كيان ولا وجود الاَّ فيهم

فقلنا حينئذٍ لسنا نظن يا سيدنا ان رجال الاتحاد والترقي يرتكبون هذا الخطاء بل لا بد ان يكونوا ادرى من غيرهم بان ما لم يفعلهُ الترك في اول حكمهم لا يمكنهم فعلهُ الآن بعد ان قوي امر العناصر كل هذا الزمان على اننا لو فرضنا انهم ارتكبوا ذلك الخطاء وقصدوا تغليب قوميتهم على قومية سواهم الآن فعدم نجاحهم مؤكد ولا خوف منهم من هذا القبيل لاننا اذا امعنا النظر في طبائع العنصر التركي وخصائصهِ والقوى التي امتاز بها نجد انهُ لا يستطيع ذلك التغلب على العناصر الاخرى وابتلاعها وجعلها كلها منهُ وفيهِ ولاسيما في هذا العصر الذي انتشر فيهِ العلم بين افراد كل عنصر

فلم يوافقنا غبطتهُ على قولنا هذا وقال ان هذا ما يقصدونهُ وانهم يستطيعون تغليب قوميتهم

على قومية سواهم اذا تركوا وشأنهم . وان هذا ما حدا بهم الى ترك المسائل الكبرى العمومية واصلاح ما تفتقر البلاد كلها الى اصلاحه وفتح المسائل الطائفية التي يقصدون بها سلبنا امتيازاتنا التي تمتع بها منذ اول حكمهم والتعرض لنا في مدارسنا وتعليم ابنائنا . فقلنا ولكنهم هم يتكون من ان فتح هذه المسائل الطائفية كان من قبلكم و يخطأون لانهم يحسبون انكم تقصدون بها معارضتهم لكي تمنعوهم من الاصلاح وتسدوا امامهم سبل النجاح

فقال غبطته اي مصلحة لنا نحن في جر البلية على انفسنا وكيف يعقل اننا نتعرض بهم لكي يتعرضوا لنا في مدارسنا وشؤوننا و يتنازعونا في امتيازاتنا . انما هم قصدوا ذلك وهم ساعون فيه وفي فصل قومنا عن كنيستهم وفي ابعاد قومنا عن بطريركهم ولكن هذا امر لا يتم لهم في عام وعامين بل لا بد لهُ من زمان طويل

فقلنا وما الذي تقصدون غبطتكم اذاً ان تفعلوهُ والحالة هذه . قال ان نحافظ على الحال الحاضرة بكل واسطة شرعية دستورية نستطيعها وان نقاوم بمثل تلك الوسائط كل سعي في ابتلاع عنصرنا وتلاشي قوميتنا

فقلنا وهل تظنون انكم تنجحون في سعيكم ومن يؤيدكم فيهِ

قال ان املنا وطيد بالنجاح و يؤيدنا فيهِ كثيرون من رجال الدولة العلية نفسها

فقلنا أمن رجال تركيا العجوز ام من رجال تركيا الفتاة . قال من الفريقين ثم انتقلنا الى بحث آخر

ولما انصرفنا جعلنا نقلب في نفسنا اقوالهُ والاقوال التي سمعناها من بعض رجال تركيا الفتاة فرأينا ان كل فريق يتهم الآخر بانهُ هو الذي يسعى في فتح المسائل الطائفية التي تؤدي الى الشقاق والخلاف الآن وان كل فريق يقول انهُ يسعى في دفع تعدي الفريق الآخر بالوسائط الشرعية والطرق الدستورية . فقلنا أليس ذلك دليلاً على ان الوهم والخطأ في الفهم هما اللذان وسعا شقة الخلاف بين الفريقين . وهل كان هذا الخلاف يدوم و يتعاظم لو قام محبو الصلح والسلام ووفقوا بينهما وجمعوا القلوب بربط المحبة والصفاء

لما اعلن الدستور ذهب العثمانيون الى بطريركية الفنار وقبلوا يد غبطة البطريرك وقالوا لهُ اقوالاً ادت الى تقبيلهم في جباههم وقولهم لهُ اقوالاً ما سمع العثمانيون الذ واطيب منها طول زمانهم ونسي الفريقان احقادهم . فلو دامت ربط الاخلاص هذه بدوام الانتباه وحسن السياسة أفما كانت تقينا شر هذه الاختلافات والعداوات وتوطد الدستور على اركان السلام والوئام

هذا ولا نخفي عن القراء الكرام ان ما رأيناهُ من تعاظم الجفاء واتساع شقة الخلاف بين الفريقين واعتماد كل منهما على الوقوف بالمرصاد للفريق الآخر ساءنا كثيراً ودلنا على ان الاصلاح الذي يتناولهُ العثمانيون سيكون سبيلهُ شاقًّا جدًّا وزمانهُ طويلاً

(٩) الالبانيون والامرائيليون

يقدر عدد السكان في تركيا اوربا اي في ولايات الاستانة وادرنة وسلانيك وموناستر وقوصوه واشقودره (بالبانيا) ويانيا ومتصرفية شالجه بنحو ستة ملايين وربع مليون نفس . ويقول الذين يوثق بقولهم ان ٧٠ في المئة من اولئك السكان ترك وروم واليان (ارنؤد) وان هذه العناصر الثلثة متساوية في العدد هناك وعليهِ يكون عدد الالبان قريباً من مليون ونصف كعدد الترك اوعدد اليونان في ولايات اوربا . والذي يعلم ما اتصف بهِ العنصر الالباني من الشجاعة والاقدام يقدرهُ قدرهُ من العناصر المؤلفة للامة العثمانية لاسيما وان هذا العنصر وان يكن قديم عهد بين العناصر العثمانية لا يزال في عهد السذاجة الفطرية ولم يبلغ من النشوء والارتقاء شأواً يذكر في قواهُ العقلية والادبية

وقد سمعنا بعض الباحثين يقولون ان هذا العنصر لا بد وان يرتقي ارتقاء عظيماً في كل جهة تتجه اليها قواهُ وهم ينتظرون ان يكون لهُ شأن خطير بين العناصر العثمانية وغيرها من الامم المجاورة

ومن غريب ما أُخبرنا عنهُ ونحن في الاستانة انهُ وان كان تعدد الاديان والمذاهب قد تطرق اليهِ كما تطرق الى سواهُ فاصبح فيهِ المسلمون والمسيحيون واصبح المسيحيون ارثوذكساً وكاثوليكاً لكن الاختلاف في الاديان والمذاهب لم يفرق بين طوائفهِ قدر ما فرق بين طوائف العناصر الاخرى بل ان صلة القربى وجامعة النسب لا تزالان غالبتين عندهم على جامعة الدين ولاسيما في الجهات الوسطى والشمالية من بلادهم . فترى المسلم يقول هذا ابن عمي ولو كان ابن عمهِ مسيحيًّا والمسيحي يقول كذلك . وترى المسيحي يتزوج بالمسلمة كما يتزوج المسلم بالمسيحية . وهذا مخالف لما كنا نقرأهُ عنهم في تاريخهم فقد ورد في التاريخ ان الارنؤوط كانوا كلهم مسيحيين وظلوا كذلك حتى مات آخر بطل من رؤسائهم واسمهُ اسكندر بك سنة ١٤٦٧ وبعد ذلك اخضعهم الترك واسلم كثيرون منهم وقام هؤلاء المسلمون على الذين لم يسلموا من عشائرهم وعاملوهم بالشدة والقسوة وفتكوا بهم بلا شفقة وتأصلت العداوات بينهم من ذلك الحين

ولكن يظهر ان معاهدة برلين لمت شعثهم وجمعت بين المسلمين والمسيحيين (المردة) في الشمال ثم بينهم وبين سائر الارنؤوط في الثورات المتعددة التي ثاروها لمنع اهل الجبل الاسود واليونان من اخذ ما تقرر في معاهدة برلين ان يأخذوا من بلاد الالبان

والظاهر ان اكثر ما كان من الاختلاف بينهم بسبب اختلاف رؤساء عشائرهم زال الآن وانهم وجهوا عنايتهم الى الاتحاد والالتئام في عهد الدستور . ولكن لم يتيسر لنا ونحن في الاستانة ان نقابل منهم من يكشف لنا حقيقة الحال عندهم ويوضح آراءهم او اميالهم من جهة النهضة الدستورية الحالية . وانما لحظنا من خلال الاقوال التي كنا نسمعها ان لجماعات من الالبانيين كلمة نافذة في ما يجري الآن في الدولة . وان لهم في جمعية الاتحاد والترقي مراعاة واعتباراً . وانهُ بعد ما اخمد جاويد باشا الثورة التي ابتدأت في اماكن من بلادهم يؤمل ان يخلدوا الى السكون وان يستمالوا بحسن السياسة وكف الظلم عنهم الى مجاراة سائر العناصر العثمانية في الاصلاح والارتقاء . ولكن الذين يناط بهم اصلاح الامور لا يمكنهم ان يغمضوا الاجفان عن مراقبة احوالهم وأميالهم لان مثلهم على ما يظهر مثل الواقف على المحور فيمكن ان يميل الى الدولة اذا مال المحور الى تلك الجهة كما يمكن ان يميل عنها اذا مال الى الجهة الاخرى . وهذا ما يقتضي ان يحسب حسابهُ في الحل والعقد والنقض والابرام حتى يكون كل ذلك بمقدار ولا يخرج الارنؤوط عن حد الرضى والاتفاق

بقي علينا ذكر عنصر آخر من العناصر العثمانية التي لابدَّ من ان يحسب لهُ شأن في النهضة الدستورية وهو العنصر الاسرائيلي ويقدر ان عددهُ يبلغ نحو نصف مليون نفس في تركيا اوربا وتركيا اسيا . لكن يهود الاستانة فاقوا سواهم يوم الاحتفال بعيد الدستور بتوكيههم ومظاهر سرورهم بالدستور وقد اخبرنا انهُ لما زحف جيش الحرية على الاستانة للدفاع عن الدستور كان بين المتطوعين من اهل مكدونية عدد غير قليل من الاسرائيليين فقاتلوا هم واخوانهم المتطوعون المسيحيون قتال الابطال في الدفاع عن الدستور كما شهد لهم بهذا اخوانهم المتطوعين المسلمين وقد كان بين المندوبين لابلاغ عبدالحميد خبر خلعهِ اسرائيلي من اعضاء مجلس المبعوثان . ويقال ان للاسرائيليين كلمة في جمعية الاتحاد والترقي بسلانيك وان جماعة اسرائيلي الاصل يسمون بالدغه يدعم اهم تجارة سلانيك وانهُ قام من هؤلاء الدغة اشهر المابين العثمانيين في عهد الدستور

ومهما يكن من هذه الاقوال فالظاهر ان رجال الدولة الحالية يثقون بصدق ولاء الاسرائيليين العثمانيين للدستور وانهُ سيكون للاسرائيليين شأن في عهد الدستور غير الشأن

الذي كان لهم في ايام الظلم والاستبداد . ولذلك لا يبعد ان تكثر مهاجرة اخوانهم الغرباء الى البلاد العثمانية واستعمارهم الاراضي البائرة الآن كقفار العراق وغيرها من الجهات التي ليست آهلة بالسكان

فالبيان الذي ذكر في هذه المقالة والمقالات السابقة اولاً عن رجال تركيا الفتاة ورجال تركيا العجوز وثانياً عن العناصر العثمانية وآرائها واحوالها واميالها يجلو للقارىء بعض ما يعترض في سبيل الاصلاح . وبعض ما يساعد ايضاً على النجاح . وكان الواجب لاستيفاء الكلام على العناصر العثمانية ان نذكر الدروز والاكراد ايضاً . ولكن الدروز يمشي عليهم اجمالاً ما قلناهُ عن العرب لانهم يعدُّون منهم في ما نحن بصدده وكذلك الكرد يمكن ان يعدوا في عداد الترك او العرب حسب موقع بلادهم . وسنبدي رأينا الخصوصي في الحالة في مقالة تالية ثم نختم مقالاتنا عن زيارة الاستانة بنظرة عمومية في الاستانة واهلها وضواحيها والله المستعان

العنكبوت

حقيقة في فكاهة

دخلت غابة باسقة الاشجار ملتفة الاغصان يجري فيها نهر متعرج . فلما وصلت اليهِ شاهدت على احدى ضفتيهِ عنكبوتاً سوداء اللون جالسة على حجر تنظف وجهها بيديها كما يفعل الذباب وهي نحيفة خائرة القوى . فرأيت ان افضل ما افتتح بهِ الحديث معها السؤال عن صحتها فقلت لها اراكِ منحرفة المزاج فما يؤلمكِ

فقالت اني مريضة وخائفة وقلقة

فقلت ما الخبر ولم يخطر ببالي قط ان عنكبوتاً مثلكِ تمرض وتخاف وقد خصصتِ بقوة لم يخص بها سواكِ

فقالت وهذه احدى البليتين فان الناس يظنون الظنون ويستنتجون النتائج من مقدمات فاسدة لا تنتج شيئاً ومع ذلك فاني اظن ان فصبي تفتح عينيك فترى الامور على حقيقتها . أتعلم اننا نحن معشر العناكب من أكثر المخلوقات اجتهاداً واوسعهم حيلةً فنحن اول من طار في الهواء بغير جناح . فمع ان الخفافيش تطير ولا جناح لها ولكن بين قوائمها وظهرها اغشية